أهمية الدراسات الآبائية للدراسات اللاهوتية

جان كلود لارشيه
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

لإظهار أهمية الدراسات الآبائية للدراسات اللاهوتية، يجب أن نتذكر أولاً كيف تتصوّر الكنيسة الأرثوذكسية اللاهوت.

١. اللاهوت الأرثوذكسي ليس تخميناً مجرداً ومجانياً يسمح بالابتداع

يجب علينا أولاً أن نلاحظ أن اللاهوت الأرثوذكسي ليس – كما هو في الكثلكة منذ السكولاستيكية التي أعطت الأولية للعقل، وكما هو الحال أيضاً في البروتستانتية – تفكيراً عقلانياً بحتاً، أو تأملاً مجرداً يمكن للاهوتي أن يطوره اعتباطياً (أي دون سبب محدد) وبحرية، أي مثل الفنان، باتّباع رغباته أو ذوقه أو خياله، أو رغبته في الابتكار.
في حين أن الكثلكة والبروتستانتية تعترفان بإمكانية تطور العقيدة، وبالتالي تبرران الإبداع في اللاهوت (وهو ما يفسر الابتكارات التي ظهرت في الكثلكة والبروتستانتية عبر تاريخهما)، فإن اللاهوت الأرثوذكسي يستبعد أي ابتكار عقائدي ولا يسمح إلا بالإبداع اللاهوتي للتعبير عن نفس الحقيقة الثابتة بكلمات مختلفةبهدف توضيحها.

٢. قد يكون للاهوت الأرثوذكسي تعبيرات مختلفة، لكنه يعبّر دائماً عن نفس الإيمان

كان للاهوت الأرثوذكسي دائماً ثلاثة أهداف أو ثلاث وظائف: التعليم والدفاع والتمجيد. في هذه الأشكال الثلاثة، لم يكن هدفه دائماً التعبير عن الفكر الشخصي للّاهوتي، بل التعبير عن إيمان الكنيسة الثابت وشرحه والدفاع عنه أحياناً. قد تكون التعبيرات المفاهيمية واللفظية متغيرة، اعتماداً على احتياجات المجتمعات المختلفة والعصور المختلفة. على سبيل المثال، مفاهيم "الشخص"، "الأقنوم"، "الجوهر"، "الطبيعة"، " التساوي في الجوهر"، "الاندماج في الأقنوم"، "القوى الإلهية"، وما إلى ذلك، وحتى فكرة "الثالوث" لا توجد حرفياً في الكتاب المقدس، ولكن محتواها موجود معَبراً عنه بشكل مختلف. ظهرت هذه المفاهيم الجديدة مع ضرورة إعادة صياغة محتوى الإيمان أو توضيحه، عندما لم تعد التعبيرات المتوفرة سابقاً كافية للأشخاص أو المجموعات الذين لم يعودوا يفهمونها بشكل صحيح، وبالتالي فهموها بطريقة منحرفة (هرطوقية) أو أصبحت ملتبسة عليهم. ولكنْ على الرغم من أن الكنيسة عرفت صيَغاً مختلفة للإيمان، إلا أنها حافظت على جوهر هذا الإيمان، وحفظت ونقلت بأمانة ما يسميه القديس بولس في رسالته الأولى إلى تلميذه تيموثاوس "الوديعة" (١تيموثاوس ٦:٢٠).
أو ما زلنا نسميه بطريقة أكثر تقنية "الإعلان kerygma". لا يمكن للإيمان نفسه أن يتغير أبداً، لأن محتواه هو المسيح نفسه، ولأنَّ "يسوع المسيح هو هو أمساً واليوم، وإلى الأبد" كما يقول القديس بولس (عبرانيين ١٣:٨).
إن هوية الإيمان هذه، والمنقولة بأمانة عبر القرون، هي ما نسميه التقليد.

٣. اللاهوت الأرثوذكسي جزء من التقليد

بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية، للتقليد أساس ثلاثي: كتابي، ومجمعي، وآبائي.
الأسس الثلاثة مترابطة وتتداخل في الحياة الكنسية.

[1] Pour un développement plus détaillé, voir ma conférence « Что та кое богословие? », *Вестник Православного Свято-Тихоновского гуманитарного университета*, I : 3 (41), май- июнь 2012, p. 117-131.

والمجامع تعبر عن إجماع الآباء الذين كانوا مجتمعين فيها؛ ويستمد الآباء في كتاباتهم الإلهام من الكتاب المقدس والمجامع السابقة؛ الكتاب المقدس في الكنيسة الأرثوذكسية يجب قراءته على أساس الإيمانِ كما حددته المجامع والفهمِ الذي قدمه الآباء.

على عكس المفهوم البروتستانتي، الذي يتمتع فيه الكتاب المقدس باستقلالية، ويشكل أساساً فريداً ومطلقاً ويمكن في الوقت نفسه أن يفسّره بحرية كل مؤمن، والمفهوم الكاثوليكي الذي يقتصر تفسير الكتاب المقدس فيه على السلطة التعليمية، ترى الكنيسة الأرثوذكسية أن قراءة الكتاب المقدس وتفسيره يندمجان في الحياة الكنسية. إذا كان صحيحاً أن الأسقف هو مفسر الكتاب المقدس بامتياز، فإن التفسير لا يرتبط بشخصه وحده، بل يجب أن يعبر عمّا تفكر فيه وتعيشه الكنيسة ككل، وكل تفسير جيد للكتاب المقدس يشير إلى تفسير آباء الكنيسة. وإن الحياة المقدسة والذكاء الروحي في الكنيسة هما معيار الجودة. أنتج العديد من آباء الكنيسة - وخاصة أوريجانوس، والقديس باسيليوس القيصري، والقديس غريغوريوس النيصي، وثيئودوريت القيروسي، والقديس كيرلس الإسكندري، والقديس يوحنا الذهبي الفم، والقديس ثيوفيلاكتوس البلغاري - أعمالاً تفسيرية ألهمت خلفاءهم وما تزال حتى اليوم تشكل معياراً ومرجعاً لكل من يريد فهم الكتاب المقدس والتعليق عليه.

وكما أنه ليس من الممكن الاندماج في التقليد الأرثوذكسي باستبعاد الكتاب المقدس والمجامع المقدسة التي أوضحت الإيمان الصحيح (orthē doxa) من خلال تحديداتها (horoi) وطريقة الحياة (ethos) من خلال قوانينها المقدسة، فإنه فلا يمكن الاندماج في التقليد والتعبير عنه باستبعاد الآباء.

على عكس الكنيسة الكاثوليكية التي غالباً ما تضع مفكري العصور الوسطى في المقدمة (مثل توما الأكويني)، والتي غالباً ما تعتبر الآباء القدامى كتّاباً كنسيين بسطاء عفا عليهم الزمن الآن (على سبيل المثال في كلية اللاهوت في ستراسبورغ، يُطلق على كرسي علم الآباء رسمياً اسم "الأدب المسيحي القديم")، وعلى عكس البروتستانتية التي تتجاهل آباء الكنيسة، فتقطع بشكل مباشر متخطية ستة عشر قرناً من الكتاب المقدس إلى لوثر أو كالفن، تقدّر الكنيسة الأرثوذكسية تسلسل الآباء غير المنقطع، من الرسل إلى يومنا هذا، ناقلة إلينا الإيمان الذي أورثه المسيح للرسل. أقول حسناً حتى يومنا هذا، لأنه، على عكس المفهوم الكلاسيكي للكاثوليك، الذي يعتبر الفترة الآبائية أُغلِقَت في الشرق مع القديس يوحنا الدمشقي (القرن الثامن) وفي الغرب مع إيزيدور الإشبيلي (القرن السابع)، ترى الكنيسة الأرثوذكسية أن القرون اللاحقة استمرت في إنتاج الآباء وأن العصر الآبائي ليس له حد زمني.

٤. أهمية معرفة الآباء في معرفة اللاهوت

أحد أسباب ضرورة معرفة أعمال الآباء جيداً هو أهميتها التاريخية في تكوين اللاهوت الأرثوذكسي وتطويره. فمن خلال النضال الذي خاضه القديس أثناسيوس الإسكندري والآباء الكبادوكيون ضد الأريوسيين ومحاربي الروح القدس، تمّ تحديد مفهوم الثالوث بأكمله بدقة؛ كما بفضل نضال القديس كيرلس الإسكندري ضد النساطرة، وآباء خلقيدونية ضد أصحاب الطبيعة الواحدة، والقديس مكسيموس المعترف ضد أصحاب القوة الواحدة والمشيئة الواحدة، تم تعريف الخريستولوجيا الأرثوذكسية. فمن دون دراسة متأنية لهؤلاء الآباء، يكاد يكون من المستحيل أن نفهم بعمق اللاهوت الأرثوذكسي حول الثالوث المقدس والروح القدس والمسيح.

٥. ضرورة الرجوع إلى الآباء في ممارسة اللاهوت

من الضروري الرجوع إلى الآباء ليس فقط لمعرفة اللاهوت، بل أيضاً لممارسة اللاهوت.

من المعتاد في ممارسة اللاهوت الأرثوذكسي الرجوع إلى الكتاب المقدس والنصوص الليتورجية والمجامع والآباء، لأنَّ اللاهوت الأرثوذكسي، كما قلنا، مندمج دائماً في التقليد، والتقليد يدمج كل هذا. من خلال اقتباس الآباء، يبين اللاهوتي أنه لا يعبّر عن نفسه كفرد منعزل، متخذاً من نفسه وضميره وفكره نقطة

انطلاق ومركزاً ومرجعاً، وأنه لا يعتبر نفسه سلطة، بل أن تفكيره مندمج في كلٍ يتجاوزه، ومنه يستمد إلهامه ويجد مبرر وقيمة وسلطة ما يؤكده. إن الفكر اللاهوتي الأرثوذكسي ليس فكراً فردياً، بل فكراً جماعياً، حيث يكون كل عضو، ليس الآن فقط بل عبر التاريخ، في جسد المسيح الذي يؤلف الكنيسة، متكافلاً مع الأعضاء الآخرين ويستمدّ منهم نشاطه ووظيفته. الآباء هم بالنسبة إلى اللاهوتي في آنٍ واحد: المعايير والمرشدون والمنارات ونقاط الارتكاز. إن اللاهوتي، باقتباسه للآباء، وبطمسه نفسه أمامهم، يشهد لتواضعه وخضوعه لتعليم الكنيسة.

في هذا النهج بالذات، الآباء هم نماذج، إذْ أنَّ جميعهم يشيرون إلى سابقيهم، ويستشهدون بهم، حتى لو لم يستخدموا دائماً إشارات صريحة مزودة بعلامات الاقتباس. إن أعظم الآباء يمحون أنفسهم أمام الآباء الآخرين، مؤكدين أنهم مدينون لهم بكل شيء، ولم يفكروا في أي شيء من أنفسهم. هكذا يكثِر القديس مكسيموس المعترف من عبارات الأمانة لتعليم الآباء. وهو يدعي أنه "يتبع الآباء القديسين في كل شيء"[2]. ويشهد لحرصه على "التقوى الكاملة وعدم الانحراف عن تعليم الآباء"[3]. ويؤكد: "أنا أفكر وأؤمن وأقول تعليم الآباء كما تلقيته منهم"[4]، ويقول في مكان آخر: "هذا هو الإيمان الذي تعلمته والذي أتعلمه من آبائنا القديسين والمغبوطين". إن عبارات "حسب الآباء"[5]، "كما قال الآباء"[6]، "كما حدد الآباء"[7]، "حسب تعليم الآباء"[10]، "حسب تعليم الآباء الذين ثبتوا"[8]، "مع الآباء"[12]، "كما نقل إلينا تعليم الآباء"[9]، تتكرر بانتظام تحت قلمه. فهو يؤكد في بداية الرسالة ١٥: "لن أقول شيئاً يصدر مني؛ سأقول فقط ما يقوله الآباء، دون تغيير أي شيء"[14].

وبنفس الطريقة يكتب القديس يوحنا الدمشقي في بداية عرضه للإيمان الأرثوذكسي: "كل ما نقله إلينا الشرع والأنبياء كما الرسل والإنجيليون، نقبله ونعرفه ونقدره أكثر من أي شيء آخر ولا نرغب في أي شيء آخر. سنكتفي به تماماً ونتمسك به "لا ننقل التخم الذي وضعه الآباء" (أنظر أمثال ٢٨:٢٢) ولا نغيّر التقليد الإلهي"[1].

٦. حول حسن استخدام الآباء في ممارسة اللاهوت

ولكن لا يكفي الرجوع إلى الآباء والاستشهاد بهم – كما لا يتعلق الأمر بالرجوع إلى الكتاب المقدس والاقتباس منه – لإنتاج لاهوت جيد. يمكن أن يكون هناك استخدام جيد واستخدام سيء للآباء.

أ. يكمن الاستخدام السيئ للآباء في أن يضعهم اللاهوتي في خدمة فكره. من الممكن بالفعل تطوير مفهوم خاطئ وإيجاد اقتباسات من الآباء مأخوذة إلى خارج سياقها لتبرير فكر اللاهوتي. وهذا ما يمكن أن نراه عند كل الهراطقة.

ب. يفترض الاستخدام الجيد للآباء في اللاهوت أن نقوم أولاً بتجريد أفكارنا الخاصة، وعندما نواجه مشكلة أو سؤالاً معيناً، نسأل أنفسنا أولاً: "ما هو فكر الآباء؟" في أي موضوع يدرسه، ينبغي على اللاهوتي أولاً أن يجمع كل نصوص الآباء التي تتناوله، مع الحرص الشديد على الحفاظ على سياقها. عليه بعد ذلك أن يرى ما الذي يحدد ما هو مشترك بينها، من خلال الاختلاف المشروع في المقاربات الآبائية،

---

2 *Dispute avec Pyrrhus*, PG 91, 297AB.

3 *Opuscules théologiques et polémiques*, 19, PG 91, 225A.

4 *Lettres*, 15, PG 91, 576A. 6 *Lettres*, 13, PG 91, 532C.

5 *Lettres*, 13, PG 91, 513C, 525C ; 15, 545A ; *Th. Pol.*, 7, PG 91, 73C ; 26, PG 91, 276AB.

6 *Ambigua à Jean*, 42, PG 91, 1324D ; *Th. Pol.*, 20, PG 91, 252C.

7 *Opuscules théologiques et polémiques*, 24, PG 91, 269B ; 25, 272B. 10 *Lettres*, 112, PG 91, 472CD ; 15, PG 91, 565D ; *Th. Pol.*, 20, PG 91, 249D.

8 *Opuscules théologiques et polémiques*, 16, PG 91, 185D. 12 *Lettres*, 112, PG 91, 484B.

9 *Opuscules théologiques et polémiques*, 20, PG 91, 245A. 14 *Lettres*, 15, PG 91, 544D.

1 *Exposé précis de la foi orthodoxe*, I, 1.

ويستلهم منه مباشرة لمعالجة موضوعه. على اللاهوتي أن يسعى دائماً إلى التفكير بحسب الآباء، مع الآباء، ومثل الآباء. ولهذا يجب عليه أن يتواضع ويضع رأيه الشخصي جانباً ويمتص، مثل الإسفنجة، ما قاله الآباء.

من ثمّ تصبح مساهمته الشخصية ممكنة ومشروعة لإنتاج محصّلة. ومن الممكن أيضاً أن يقدم إجابات على الأسئلة التي لم يجِب عليها الآباء لأنها لم تُطرح في عصرهم (على سبيل المثال بعض الأسئلة الحالية في أخلاقيات علم الأحياء المرتبطة بتطور التقنيات الحديثة)، أو لأن أخطاء جديدة في تفسير العقيدة قد ظهرت (بالفعل سيكون هناك بدع جديدة حتى نهاية العالم). لكن في هذه الحالة، يجب على اللاهوتي أن يعتمد دائماً على المبادئ التي وضعها الآباء (كما هو الحال، على سبيل المثال، في أخلاقيات علم الأحياء حيث يرتكز على الأنثروبولوجيا التي طورها الآباء، أو في مواجهة البدع الجديدة حيث يرتكز على الأسس العقائدية التي شبق أن طرحها الآباء).

٧. التفكير بروح الآباء

في الحالات التي يجب أن يعبر فيها عن نفسه في مواضيع لم تتح للآباء الفرصة لمعالجتها، يجب على اللاهوتي أن يفكّر "مثل الآباء"، أي بروح الآباء.

إن التفكير بروح الآباء يفترض قبل كل شيء أن اللاهوتي قد تشبّع بهذا الروح من خلال الارتباط الطويل بالآباء والقراءة الغزيرة لأعمالهم. ولكن هناك عدة طرق لقراءة الآباء. هناك طريقة خارجية، شكلية وفكرية بحتة للتقرب من الآباء، كما لو كانوا فلاسفة أو كتاباً قدماء. يجب على اللاهوتي الأرثوذكسي أن يستبعد هذه الطريقة. بالمقابل يجب مقاربة الآباء باحترام، كآباء بالمعنى الأول ومعلمين (القديس مكسيموس المعترف، في أعماله، يدعو باستمرار القديس غريغوريوس اللاهوتي، الذي يستلهم منه كثيراً، "*o didascalos*" أي المعلم). ولكن قبل كل شيء، يجب أن نقترب منهم روحياً، بالمحبة والتبجيل. أبي الروحي، الستاريتز سيرج (شافيتش)، نصحني عندما بدأت بدراسة الآباء بأن أقرأهم بنفس طريقة قراءة الكتاب المقدس، لا بالعقل بل بالروح متحدة بالقلب في الصلاة. ولهذا أسستُ شركة حقيقية بالروح مع الآباء.

ب. إن اكتساب نمط التفكير الآبائي يتم جزئياً من خلال محاكاة فكرية معينة تُمارَس في جو روحي داخلي معين، ولكن جزئياً وقبل كل شيء من خلال التفكير انطلاقاً من نفس الحالات الروحية مثل الآباء، من خلال اكتساب نفس الخبرة الداخلية مثلهم، وبالتالي أيضاً نفس أسلوب حياتهم الكنسي والنسكي. لا يستطيع اللاهوتي أن يقتني التمييز والإلهام الذي يحتاج إليه، وهما نعمة الروح القدس، إلا إذا مارس الوصايا الإلهية، وتطهّر من الأهواء، واجتهد في العيش بحسب الفضائل، واشترك في الحياة الليتورجية، وتغذّى بالروح القدس. إن الأسرار المقدسة في الحياة الكنسية، تظهر التواضع تجاه الحقيقة وتقليد الكنيسة الذي تنقله، وتنجز مهمتها من منطلق محبة الله والقريب[1].

٨. حاليّة الآباء

في الختام، أود أن أجيب على سؤال كثيراً ما يطرحه أشخاص من خارج الكنيسة الأرثوذكسية: أليس الآباء مؤلفين قدامى، وقد عفا عليهم الزمن الآن؟

منذ أن بدأت دراسة الآباء، منذ أكثر من أربعين عاماً، وجدت دائماً أن فكرهم والطريقة التي يعبّرون بها عنه لا تزال حيّة بشكل مدهش، بل وأود أن أقول إنها راهنة؛ وهذا ما جذبني في البداية لقراءتهم، ولهذا السبب لا أزال أجد اهتماماً بأعمالهم حتى اليوم. ليس انطباعنا عند قراءتهم أننا في حضرة رجال بعيدين

[1] Pour un développement plus détaillé sur les conditions spirituelles de la pratique de la théologie, voir ma conférence « Что такое богословие? », *Вестник Православного Свято-Тихоновского гуманитарного университета*, I : 3 (41), май- июнь 2012, p. 117-131.

عنا كثيراً مكاناً وزماناً، حتى لو عاش بعضهم في أزمنة بعيدة وفي سياقات جغرافية واجتماعية وثقافية مختلفة تماماً عن سياقنا. . ما يقولونه يتحدث إلينا في حينه ويؤثر علينا بشكل مباشر.
هناك عدة أسباب لذلك: أولاً، حقيقة أنهم اختبروا ما يقولونه بعمق، وأن ما يقولون ليس بناءاً مصطنعاً مجرداً لعقلهم، ولكنه تعبير عن تجربتهم الشخصية الداخلية، حيث يرتبط العقل ارتباطاً وثيقاً بالقلب؛ ثانياً، حقيقة أن تعاليمهم تتغذى باستمرار من الكتاب المقدس، وهو أيضاً أحد المصادر الرئيسية لحياتنا المسيحية؛ ثالثاً، حقيقة أنهم يعيشون المسيحية بشكل أساسي، في جوانبها الأساسية، مما سمح لكلماتهم وكتاباتهم أن تعبر القرون وأن تكون قادرة على تغذيتنا حتى اليوم؛ رابعاً، أن فكر الآباء (إلا في حالات قليلة يأخذ فيها اللاهوت، بسبب طبيعة الخلاف، جانباً تقنياً للغاية) هو فكر وجودي ملموس؛ خامساً وأخيراً، حقيقة أن خبرتهم عالمية في الزمان والمكان، لأن هذه الخبرة هي تجربة الحياة في المسيح، الذي هو، كما يقول القديس بولس "هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد" (عبرانيين ١٣:٨).

Source : Jean-Claude Larchet, ***L'importance des études patristiques pour les études théologiques,*** Elpis, 16 2014: 7-10.

محاضرة ألقيت في وارسو في ٢٧ تشرين الثاني ٢٠١٣.